

العهد الثالث

الملكة أروى الصليحي

كان أهل اليمن يخاطبونها بلقب « الملكة الحرة » حباً بها وإجلالاً لها . وهي « أروى بنت أحمد بن محمد الصليحي » . ولدت سنة ٤٤٠ هـ . ويروى أن أباه أحمد بن محمد الصليحي هو الذي بعثه الملك على الصليحي مع الوفد اليمنى إلى الخليفة الفاطمي الإمام المستنصر بالله بعد استيلائه على حصن مسار ، لكي يستأذن الخليفة في إظهار الدعوة الإسماعيلية في أنحاء اليمن . ويروى التاريخ أنه مات في عدن بسقوط البيت الذي كان يسكنه عليه ، وأروى كانت في ذلك الوقت طفلة صغيرة .

أمها « الرواح » بنت الفارح بن موسى الصليحي : وقد تزوجت من عامر بن سليمان بن عبد الله الزواحي بعد موت زوجها أحمد ، فرزقت منه سليمان بن عامر الزواحي القائد الكبير الذي لعب دوراً هاماً في الفتوحات الصليحية . فكان أختاً لأروى لأمها .

قامت بتربيتها وتهذيبها وتأديبها السيدة أسماء بنت شهاب

زوجة الملك على الصليحي بعد زواج أمها . فنشأتها
تنشئة طيبة فاضلة . وكانت موضع اهتمام الملك على الصليحي
أيضاً . فكثيراً ما كان يقول لأسماء : « أكرميهما ، فهى - والله -
كافلة ذرارينا وحافظة هذا الأمر على منبقى منا » .

كانت على جانب كبير من الأخلاق الفاضلة إلى جانب
ما تمتعت به من جمال الحلقة ، فكانت بيضاء اللون مشربة بحمرة ،
مديدة القامة . معتدلة البدن . تميل إلى السمرة ، كاملة المحاسن ،
جهورية الصوت . قارئة كاتبة . تحفظ الأخبار والأشعار
والتواريخ وأيام العرب ، ولها تعليقات وهوامش على الكتب تدل
على غزارة مادتها . وكان يقال لها : « بلقيس اليمن الصغرى »
لرجاحة عقلها وحسن تدبيرها . وكانت إلى جانب ذلك
متبحرة في علم التأويل والتنزيل الإسماعيليين . وكان الدعاة
يتعلمون منها من وراء الستر ، ويأخذون عنها ويرجعون إليها ،
وامتازت أيضاً بالصلاح والتقوى والخبرة الواسعة والمعرفة
الفائقة بأحوال الناس مما ساعدها على إدارة شؤون بلادها
في ظروف حرجية أحاطت بالبلاد اليمنية . ويقول التاريخ :
إنها كانت امرأة فاضلة ذات نسك وورع وفضل وكمال عقل
وعبادة وعلم . تفوق الرجال . فضلاً عن ربات الحجال .
ولذلك استحققت مدح الشاعر القائل :

ودا التأنيث لاسم الشمس عيباً ولا التذكير فمخر للهِلال
وقد استحقت التقديم والتفضيل على الفضلاء من الرجال
فكان الخليفة الإمام المستنصر بالله الفاطمي قد أصدر إليها
أجل أبواب دعوته فأفادها من علوم الدعوة الإسماعيلية ما رفعها
عن حدود الدعوة إلى مقام الحجج الكبار .

فالصفات الكريمة التي لم تتجمع قط إلا في القليل من
نساء العالم تجمعت في الملاكة الحرة أروى .

وإنه من الطبيعي بعدما علمنا كل هذا عن السيدة الحرة
أروى ، وبعدها وقفنا على مقدار اهتمام الملك على الصليحي
وزوجته أسماء بنت شهاب وعنايتهم بها ، أن يختارها زوجة
لابنهما الملك المكرم . وقد اقترنت به بالفعل بعد أن تولى
منصب ولاية العهد سنة ٤٥٨ هـ . وكان لها من العمر ثمانى
عشرة سنة . وفي هذا الزواج قال الشاعر القمى :

وكريمة الحسين يكتف قصرها أسد تخاف الأسد من صولاتها
وتكاد من فرط الحياء تغض عن تماثلها المرئى في مرآتها
ظفرت يداك بها فبخ إنما لك تذخر العلياء مضموناتها
وكان الملك على الصليحي قد أصدقها عدن حين زوجها
من ابنه المكرم ولم يزل ارتفاع عدن من حين زواجها يرفع
إليها . وهو مائة ألف تزيد تارة وتنقص .

وقد ولدت للملك المكرم علياً ومحمداً وفاطمة وأم همدان .
فأما علي ومحمد فسنتكلم عنهما فيما بعد ؛ وأما أم همدان
فقد تزوجت من ابن خالتها أحمد بن سليمان بن عامر بن سليمان
الزواحي . فرزقت منه بعبدة المستعلى . وتوفيت سنة ٥١٦ هـ
وأما فاطمة فتزوجت من شمس المعالي علي بن سبأ بن أحمد
الصليحي وتوفيت سنة ٥٣٤ هـ .

بدأت الملكة أروى نشاطها السياسي في عهد زوجها
الملك المكرم . وفي هذا يقول عمارة اليمنى بتاريخه : « لما توفيت
أسماء بنت شهاب ، والددة المكرم ، فوَضَّ الأمر لزوجته
الملكة أروى . فقامت بالأمر وحدها واستعفتته في نفسها ،
وقالت : إن المرأة التي تراد للفراش لا تصلح لتدبير أمر ،
فدعني وما أنا بصددده .

وكانت تستشير في هذه المدة القاضي عمران بن الفضل
اليامي ، وأبا السعود بن أسعد بن شهاب الصليحي ، ولما توفي
زوجها سنة ٤٧٧ هـ ، حملت الملكة أروى وحدها عبء
هذه المسئولية الجسيمة . وأصبحت بتفويض من الخليفة الفاطمي
الإمام المستنصر بالله تتصرف في أمور الدولة والدعوة الإسماعيلية
في اليمن والهند وعمان .

ولم يقف حسن سعي الخليفة الفاطمي الإمام المستنصر

بالله عند هذا الحد، بل أمد الملك على بن المكرم بالتأييد، وأوصاه بأن يهتدى بهدى أمير المؤمنين . كما أنه أرسل إلى أخيه الأمير محمد بن المكرم يأمره بطاعة أخيه ومؤازرته وموالاة من يوالى أمير المؤمنين ومعاداة أعدائه . وكذلك إلى كافة الأمراء والقواد والمقدمين والمؤمنين ، بل إلى الملكة أروى نفسها يأمرها بضرورة طاعة الملك على والامتثال لأمره ، وأن تعمل عليه فى سرها وجهرها . وأن تستعين بأهل الدعوة فى اليمن على من عاداهم وعاداهما .

وفى سنة ٤٨٠ هـ أرسل الخليفة الفاطمى الإمام المستنصر بالله سجاداً آخر إلى الملك على لقبه فيه بلقب « سليل الدعوة ونجلها » . وقد قصد بذلك أن يشعر الجماعة فى بلاد اليمن بمكانة على من الدعوة . ويبين لهم مدى تأييد الإمام له . وأنه قد اختاره فى رئاسة الدعوة والدولة فى اليمن بالنظر لما كان لآبائه من خدمات وفضل على الدعوة الإسماعيلية .

هذا وتدل سياسة المستنصر هذه على بعد نظر فى الأمور وحسن إدارة ، فقد رفض تولية سبأ بن أحمد الصليحي الملك بالرغم من وصية المكرم له ، وولى على بن المكرم على رغم صغر سنه ، لأنه يعلم تمام العلم أن الملكة أروى والدته لها من القوة والكفاية ما يمكن الاعتماد عليها فى تنفيذ السياسة

التي ترضى الفاطميين . ولاريب ففى سيدة عريقة الأصل
كريمة المختد تمرنت على إدارة شؤون المملكة فكانت أبعد
نظراً من الملوك الرجال أنفسهم .

هذا من جهة . ومن جهة أخرى أدرك الخليفة الفاطمى
الإمام المستنصر بالله شيئاً آخر هو أن المحافظة على مبدأ
الوراثة فى الابن الأكبر خير ضمان لعدم إثارة المنازعات الداخلية
بين الأحفاد والأعمام والأسرة الواحدة ، ولا سيما أن هذا المبدأ
كان معمولاً به فى عهد الدولة الفاطمية إلى أيام الإمام المستنصر
بالله بالنسبة للعائلة الفاطمية الحاكمة ، ولهذا كله نراه يولى
الطفل على بن المكرم شؤون الملك والدعوة بدلاً من ابن عمه
سباً بالرغم من أن الأخير كانت تؤهله لهذا المنصب سنّه
وشخصيته الممتازة ومحبة الناس ، وغيرته على الدولة ودأبه على
رفع شأنها ، كما تؤهله أيضاً مواقفه الحميدة فى خدمة الدولة
فى عهد الملك المكرم . وأن وصية الملك المكرم تعد أحسن
شهادة بذلك .

أجل ؛ لقد كانت مؤازرة الإمام المستنصر بالله للملكة
أروى وابنها على بن المكرم دليلاً على ثقة غالية وحباً بجمع
كلمة أهل الدعوة وجعلها حولها ودعوة جميع المسلمين على
وجوب طاعتها وسبباً يجعل الأمير سباً يتخلى من المطالبة

بحقه . وتجاه هذه العواصف الداخلية تعصف بالمملكة الفتية ، وإزاء هذه الانقسامات . فكرت الملكة أروى بثاقب نظرها وحسن سياستها وتقديرها الصحيح لعواقب الأمور ، واستطاعت أن تقضى على الفتنة في مهدها عندما جعلت الأمير سباً نائباً عن ولدها بشؤون الملك وحامياً لدمار دولته من المعتدين . وبذلك قضت على كل محاولة للفساد أو النيل من الدولة .

ومهما يكن من أمر فإن الأمير سباً أبلى في ذلك بلاء حسناً ، ودخل في حروب متوالية مع جيّاش بن نجاح الذي كان قد هرب إلى الهند حينما قتل سعيد الأحول بن نجاح سنة ٤٦١ هـ ، وما لبث أن عاد إلى اليمن متنكراً حينما علم بمرض المكرم واضطراب أحوال دولته ، وكان قد اشترى في الهند جارية هندية تزوج منها وأحضرها معه إلى اليمن ، وقد رزق منها ابناً سماه « الفاتك » تولى الحكم بعد وفاة أبيه سنة ٤٩٨ هـ .

ومما هو جدير بالذكر أن جيّاشاً وزوجته الهندية ظلا مختلفين بزُبَيْد حتى عرف أن الوالي أسعد بن عراف قد حدث بينه وبين وزيره علي بن القم نزاع اضطر الوزير أن يقول : « لو وجدت كلباً من آل نجاح لملكته زُبَيْد » ، فاغتبط جيّاش من هذه الأخبار ، وأخذ يعد العدة ،

فاتصل بالأحباش من المتفرقين بالبلاد وأمرهم بالاستعداد ،
 كما اتصل بالوزير على بن التميم وتعاهدا على كتمان الأمر
 حتى يتخلصا من حاكم زبيد أسعد بن عراف . ولما استوثق
 جيشا . وأكمل استعداداته لنفسه . أمر بضرب الطبول
 والأبواق . فثارت معه عامة أهل المدينة وطردها الوالى . ولم
 يمض شهر واحد حتى أصبح يركب فى عشرين ألف محارب
 من الأحباش وبنى عمه وعشيرته والموالين له .

أجل : دخل سبأ فى حروب متواصلة مع جيشا . وذلك
 لأن حصون بنى المظفر كانت مظلة على تهامة وهى أقرب
 إليها من جميع الجبال . فكان إذا برد النسيم نزع العرب بقيادة
 سبأ إليها . وارتحل جيشا عن البلاد . فيقيم سبأ لجباية الخراج ،
 وبسط العدل . وكان يحتسب للعمال ما قبض منهم جيشا
 فى أشهر الصيف والحريف ، فإذا انقضى الشتاء
 وانصرم الربيع ارتحل بمن معه من العرب من تهامة إلى الجبال
 وملك جيشا تهامة إما بالقتال وإما لشدة الحر وانتشار الوباء
 فى العرب . ويقول المؤرخ عُماره : « وإذا عاد جيشا
 إلى زبيد نشرت المصاحف وابتهلت له الرعايا بالدعاء ،
 وظهرت الفقهاء . وتناولت العلماء . واحتسب جيشا للعمال
 ما قبضه منهم سبأ ونوابه فى مدة الشتاء والربيع » .

ولما طال ذلك على جياش وأتعبته حرب العرب وخشى
منهم الغلب دبر له وزيره خلف بن أبى طاهر حيلة فأرسل
من يشير على الأمير سبأ الصليحي بوصوله إلى زُبَيْد . وقد
أشار الوزير خلف على جياش بأن يعتقله ويقبض أملاكه
وأمواله . وأن يقيم محمد بن الغفارى وزيراً له ففعل ذلك ،
ثم إن خلفاً تظاهر بأنه نقب السجن وهرب إلى سبأ ، فلم
يزل يُحَسِّن له النزول إلى تهامة حتى ذهب إلى زُبَيْد ومعه
ثلاثة آلاف فارس وعشرة آلاف راجل ، وكان جياش
قد أعد الجموع واستنصر بالشريف يحيى بن حمزة بن دهاس ،
وكان كثير من زعماء جيوش جياش قد كاتبوا الصليحي غدرًا
وكيداً ، فلما انتهى سبأ ، وفرقته إلى باب زُبَيْد ، وكان
الشريف وغيره قد نصبوا مع جياش كميناً ، ظهروا على
الناس بغتة . ووقعت بينهم موقعة الكظائم المشهورة فى اليوم
الخامس من ذى الحجة سنة ٤٧٩ هـ ، حيث انهزم سبأ
ومن معه ، وقتل الأميران قيس بن أحمد بن مظفر (أخو الأمير
سبأ) ومحمد بن مهنا الصليحيين . وحمل الشريف يحيى
ابن حمزة على القاضى عمران بن الفضل الياضى فطعنه طعنة مات
بسببها بعد أيام وعُقر فرس الأمير سبأ ، فاضطر أن يسير
راجلاً فى أغمار الناس حتى حمله بعض جنده على جواده .

وفي قتل القاضي عمران بن الفضل الياحي يقول الشريف
يحيى بن حمزة مفتخرًا :

أبلغ نزاراً حيث حل نزارُ

ومنها :

ونجا الحجازيُ الرئيسُ بطعنة نجالاً لها تحت القميص خوارُ
ثم اعتذر إلى الأمير سبأً فيما كان من نصره للحبشة في
قصيدة منها :

وقد يعزُّ علينا ما أصابكم منا بغير رضا كفُّ ولا قدم
والله يعلمُ أني يوم وقعتكم لم أمش إلا على جمر من الندم
وأن فيض دم منكم كفيض دم بكر بلاء وثأر الطف لم يرم
فأجابه عبد الله بن يعلى الصليحي على لسان سبأ :

يارا كبراً راح لا يلوى على أحد لقيت داعية التوفيق والنعم
إلى قوله :

فليس قيس وإن جلت رزيته وكان صنوى لحمى لحمه ودمي
ولا الحمام أبو موسى وصاحبه محمد وهما من أوثق العصم
بأول القوم منا حمّ موتهم بين الأسنة والهندية الخنُدمُ
والسيف يأكلنا حيناً ونرتعه حيناً إذا شاء في الأعناق والقمم

وملك جياش زُبَيْد . ولم يقدر العرب على أخذ تهامة
بعد هذه المعركة برغم محاولات الأمير المفضل بن أبي البركات

لاسترجاعها . وكانت هزيمة الحرب ضربة قاسية على كيان الدولة الصليحية ، بل على فكرة وحدة البلاد النخبة تحت راية الدولة الصليحية العربية .

وفي عهد الملك على بن المكرم قام نزاع بين الصليحيين والزواحيين ، وكان هؤلاء أركان الدولة الصليحية ولحماتها في إبان عهودها الأولى . فشغل ذلك النزاع أروى حقبة من الزمن لأن المخالفين انتهزوا هذه الفرصة ووجدوا في هذا النزاع وسيلة لك صرح الدولة الصليحية وإفسادها بالسعى لدى المتخاصمين في توسيع شقة الخلاف مما دعا الملكة أروى إلى أن تعرض الأمر على الخليفة الفاطمي الإمام المستنصر بالله الذي أسرع برده ، وكلف الملكة بوجوب العناية لفض هذا النزاع بين سبأ بن أحمد الصليحي . وعامر بن سليمان الزواحي . وشدد عليها في ضرورة وضع حد لهذا النزاع بين الاثنين حرصاً على سلامة الدولة .

ومن ردّه : « وأما ما كان شجري بين أبي حمير سبأ بن أحمد الصليحي ، وأبي الربيع سليمان بن عامر الزواحي أعزهما الله فقد عرف أمير المؤمنين ما تكررت به مكاتباتك ... وقد كان أمير المؤمنين ندبك من قبل ويندبك ، وفوض ويفوض إليك ، ويرتضى سداد رأيك لفصل هذه القضية وإعادة

الأمر فيها إلى الصورة المرضية العائدة بإطفاء الثائرة . وحسم ما شجر بين المذكورين من النفار . وإحجام عزائمهما ورجاخمها وأموالهما وعددهما . لما يلف منهما من منابذة العدو والقيام بفرض الجهاد . ومقارعة ذوى العناد والإلحاد واسترداد ما شذ عن حوزة الدعوة الهادية من البلاد . والغية إلى أحسن ما كان عليه . وأجمل ما يجرى أمثالهما إليه .

ولما كانت مسألة هذا النزاع تعد مسألة حيوية بالنسبة لبقاء دواة الصليحيين واستمرار نفوذ الفاطميين في اليمن ، فإن الخليفة المستنصر بالله لم يأل جهداً في أن يتولاها بعنايته ورعايته لكي يقف تيار النزاع وتثبت أقدام الدولة . فبادر في شهر ربيع الأول سنة ٤٨٠ هـ . وأرسل إلى أمراء الصليحيين وإلى الزواحيين وإلى رؤساء الحجاز وكافة رجال الدين وأهل الدعوة في اليمن رسالة يحثهم فيها على تناسي الأحقاد وبأمرهم بوجوب طاعة الملكة أروى وابنها الملك على بن المكرم والتعاقد والترافد في نصرة الدعوة الإسماعيلية . ويعد هذا السجل شهادة هامة على اعتراف الإمام بفضل الدولة الصليحية^{١٧} على الدعوة الإسماعيلية . كما يعد من أهم العوامل التي ساعدت على تثبيت مركز الدولة في الصدر الأول من حكم الملكة أروى الصليحية . وكان من أثر هذا أن انتظمت الأمور

وعادت المياه إلى مجاريها . وأذعن المؤمنون هناك لأوامر الإمام ودانوا بالطاعة للملكة أروى .

وقد سر الخليفة الفاطمي الإمام المستنصر بالله كثيراً حين جاءت الأخبار من الملكة بأن النزاع بين الصليحيين والزواحيين قد انتهى على أحسن حال ، وقد وقفنا على ذلك الخبر من سجل أرسله الإمام المستنصر بالله إلى الملكة أروى في شهر ربيع الأول من سنة ٤٨٠ هـ ومن رسالة أخرى أرسلها إلى ابنها في شهر ذي القعدة سنة ٤٨١ هـ . ومنها : « وكل بورود أوامر أمير المؤمنين تمامه من زوال ما كان شجر بين سبأ ابن أحمد الصليحي وسليمان بن عامر الزواحي . وانقشاع ما كان غشي أمير المؤمنين بذلك من الضباب ، وخمود ما كان تأجج من نار الفتنة التي أغلق دونها الباب . وعود الأمر فيما بينهما إلى أجمل عوائد الاتفاق ، وتصرم حكم المجانبة والافتراق ، واستواء قلوبهما على الصلاح الجامعة للخير أسبابه والمفتحة له أبوابه والشاملة للكافة مبادئه وأعقابه ، وتأليف نيتهما على التقوى ومخالفة الهوى المردى ، واتباع سبيل الرشاد والهدى » .

ويصادف في تلك الأثناء أن يموت ابن الملك المكرم الأصغر « الأمير محمد » في حياة أخيه ، ولم تطل الأيام

حتى يقضى الله بوفاة الملك على نفسه ، فعاد الأمير سبأ يطالب بحقه فى تولى أمور الدولة والدعوة ، ولكن الملكة أروى لم تمكنه من ذلك ، بل قامت هى وأعلنت كفالتها لكافة المؤمنين والدعاة الميامين والحدود والمستجيبين . ثم نصبت نفسها المسؤولة الأولى عن شؤون الدولة .

فاتخذ الأمير سبأ سبيلا آخر لإقناعها بأن طلب يدها للزواج . وقد ظن أنه يستطيع أن يصل بهذه الطريقة إلى تحقيق أغراضه بالملك ، مع أنه كان يعلم تماماً بأنها سوف لا ترضى بهذا الزواج وكيف يتم ذلك وقد سبق أن استعفت زوجها الملك المكرم بقولها : « إن المرأة التى تراد للفراش لا تصلح لتدبير أمر فدعنى وما أنا بصددده ! »

وقد حدث هذا فى حياة زوجها الملك المكرم الذى كانت تشاطره الحكم ... أما الآن وقد تولت تدبير شؤون الدولة الداخلية والخارجية وحدها ، وأمور الدعوة الإسماعيلية أيضاً ، فإنه من المستبعد كثيراً أن تقبل بهذا الزواج السياسى . ولما رفضت الملكة أروى ذلك وأنكرته غاية الإنكار ، جمع الأمير سبأ جيوشه وجموعه وسار من حصن أشيخ إلى ذى جبلة لا لمحاربة الملكة بل لإظهار قوته وسؤدده ، فجمعت هى أيضاً جموعها ، فتناوش الفريقان ، وكادت رحى الحرب

تدور بينهما لولا أن سليمان بن عامر الزواحي (أخو الملكة
أروى لأمها) أنقذ الموقف ، فقد أشار على الأمير سبأ أن يتصل
بالخليفة المستنصر بالله ويقيمه حكماً فاصلاً بالأمر ، فهو
الحبير والقاضي في فض هذه المشكلة .

فترك الأمير سبأ المنهج العسكري ورجع إلى حصن
أشبح ، وسير إلى الإمام المستنصر بالله رسولين هما : القاضي
الحسين بن إسماعيل الأصبهاني ، وأبو عبد الله الطيب ،
وقد ساعدته في تحقيق مطلبه رغبة الإمام المستنصر بالله
في استتباب الأمن في اليمن وفي إقرار الوحدة بين أنصار
الدولة الصليحية والدعوة الإسماعيلية ، فاما وصل هذان
الرسولان إلى القاهرة لم يرض الإمام المستنصر بالله عن بقاء
هذا النزاع بين أنصاره فعمل أن يجذب إليه الفريقين المتنازعين
بزواج الملكة أروى من الأمير سبأ ، فكتب إليها يأمرها
بقبول الزواج ، وأرسل كتابه مع الرسولين ، ولما دخلا على
الملكة أروى وهي بدار العز في ذي جبلة تكلم الرسول وهو
واقف بين وزرائها وأهل دولتها فقال : أمير المؤمنين يقرأ
السلام على الملكة أروى السيدة الرضية ، الطاهرة الزكية ،
وحيدة الزمن ، سيدة ملوك اليمن ، عمدة الإسلام ، ذخيرة
الدين ، عصمة المؤمنين ، كهف المستجيبين ، ولية

أمير المؤمنين . كافلة أوليائه الميامين . ويقول لها : « قد زوجك مولانا أمير المؤمنين من الداعي الأوحى ، المنصور ، المظفر ، عمدة الخلافة ، أمير الأمراء سبأ بن أحمد بن المظفر الصليحي على ما حضر من المال وهو مائة ألف دينار عيناً وخمسون ألفاً أصنافاً من تحف ولطائف وطيب وكساوى » .

فرفضت وأصرت على رفضها ، ولم يزل وزيرها زريع ابن أبي الفتح والقاضي الأصهباني يلاطفانها حتى أجابتهما إلى تحقيق رغبة الخليفة . فعقدوا عقد الزواج ، ولم يلبث الأمير سبأ أن سار في أمم عظيمة إلى ذى جيلة ، فأقام شهراً والضيافات الواسعة تخرج إلى مخيمه في كل يوم حتى أنفقت على جيشه مثل ماقدمه من المهر . ورأى الأمير سبأ من على همتها ما حقر نفسه معها ، حتى ندم على خطبتها . وهناك أقوال كثيرة حول هذا الموضوع وأهمها وأرجحها هو أن الأمير سبأ لم يتزوجها ، ومع ذلك أقامته الملكة أروى في الدعوة والملاك ؛ وكان كما مر فاضلاً ورعاً تقيّاً زاهداً ، ما وطئ أمة قط ، ولا شرب مسكراً ، كريم الأخلاق طيب الأسباب والأعراق يقصده الشعراء وطلاب الندى . وقد أقام معه في أشيخ الشاعر الحسين القمى ، ومدحه بقصائده الغر ، ومنها :

إن ضامك الدهر فاستعصم بأشيخ أو
 أزرى بك الفقر فاستمطرُ بنان سبها
 ما جاءه طالبٌ ينبغي مواهبته
 إلا وأزعم منه فقره هربا
 تحال صارمه يوم الوغى نهرا
 تضرمت من دم حافاته لهبا
 بنى المظفر ما امتدت سماء علا
 إلا وألفيتُم في أفقها شهابا
 إن امرأ كنت دون الناس مطلبه
 لأجدر الناس أن يحظى بما طلبا
 ويقول ابن القيم :

وما يلتقى صدق الوداد وطاعة ال
 عذول ولا جود ابن أحمد والجدب
 كريم إذا جادت فواضل كفته
 تيقنت أن البخل ما يفعل السحب
 أجار فلا خوف وأحيا فلا ردى
 وجاد فلا فقر ورام فلا صعب
 ويثني على قصاده فكأنه
 يجاد بما يُجدى ويحيى بما يحبو

كتبته إليه والمفاوز بيننا
وكان جوابي جود كفيه لا الكتب
ومن شعره فيه أيضاً :

معاليك لا ما شيدته الأوائيلُ
ومجداك لا ما قاله فيك قائلُ
وما المجد إلا حيث يمت قاصداً
وما النصر إلا حيث تنزل نازل
ملكك يقض الجيش والجيش حافل
وينجل صوب المزن والغيث هاطل
سحاب غواديه بلحى وعسجد
وليث عواديسه قنأ وقنابل
ترقى الأعادي بأسه وهو باسمُ

ويرجو الموالى جوده وهو صائـل
وكان الأمير سبأ فصيحاً شاعراً يحيب الشعراء على
قصائدهم ، ثم يجيزهم ويزيد في برهم ، ومن ذلك أن ابن القم
مدحه فأجابه بمثل شعره وأجازه بجائزة سنية لا تصدر إلا عن
مثله ، فقال في ذلك القمى :

ولما مدحت الهزبرى ابن أحمد
أجاز وكافانى على المدح بالمدح

فعوضني شعراً بشعري وزادني
 عطاءً فهذا رأس مالي وذا ربحي
 شقتُ إليه الناس حتى لقيته
 فكنت كمن شق الظلام إلى الصبح
 فقبح دهر ليس فيه ابنُ أحمد
 ونزه دهر كان فيه من القبح
 وهكذا ظل الأمير سبأ في حصن أشيخ يقدم المساعدات
 إلى الملكة أروى في كل ما يعود على الدولة بالخير حتى
 وافته المنية سنة ٤٩١ هـ . وتشاء الأقدار أن يموت بعده أى
 سنة ٤٩٢ هـ أخو الملكة أروى لأُمها عامر بن سليمان الزواحي
 وكانا من أركان الدولة الصليحية .
 ولما مات الأمير سبأ وعامر خرجت صنعاء وأعمالها
 عن مملكة الصليحيين وارتفعت أيديهم عنها ، ولم يبق لأحد
 منهم فيها ذكر ، فاستولى على صنعاء وأعمالها يومئذ حاتم
 المغلس الهمداني ، وكان ناهضاً كافياً ، ولم تحاول
 الملكة أروى إعادتها إلى مملكتها ، بل قبلت الأمر الواقع ،
 واتجهت إلى تدعيم ما بقي من المملكة ، فأقامت المفضل بن الوليد
 الحميري على قيادة الجيش وإدارة شؤون الدولة التي كانت
 بحاجة إلى شخصية قوية ، وكان المفضل يتصرف بالأمور ،

ویدخل على الملكة أروى مع خواص وزرائها والأمراء
والأكابر ، وهو رجل الدولة ومدبرها ، والمرجع إلى رأيه
وسينمه . والملكة أروى لا تقطع أمراً إلا به ، فعظم بذلك
شأنه وعلت كلمته ، وغزا تهامة مراراً ، فتارة كانت له وتارة
عليه . وهبط عدن مراراً ، ولم يبق باين من يساميه قدراً .
وكان له في نصرة الملكة أروى مواقف حميدة منها أنه تولى
قيادة الجيش لمحاربة الأمير سبأ حينما تأزمت الأمور بينه وبين
الملكة أروى ، ولم تجبه إلى طلبه ، كما حارب الأمير على
ابن سبأ صاحب حصن قيضان وأخرجته منه سنة ٤٩٥ هـ ،
وملك حصون بني المظفر في نفس العام ، وحارب عمرو بن
عرفطة الجبني وغيره من سنحان وعنس وزبيد واسترجع نصف
خراج عدن من آل زريع .

وحدث في سنة ثلاث وخمسة ما لم يكن في الحسبان ،
وذلك أن أولاد جيشاختلفوا فيما بينهم ، وكادت الفتن
الداخلية تقضى على دولتهم في تهامة ، ولما لم تكن الدولة
الصليحية في حالة تسمح لها بإيقاد نار الفتنة في تلك البلاد
تمهيداً لاحتلالها أو بقادة على حفظ كيائها في ذلك الوقت ،
لم تتمكن من انتهاز الفرصة واسترداد البلد الذي طالما تافت
لضمه إليها . ولكن هذا الخلاف أدى إلى خروج منصور

ابن فاتك بن جياش من زُبَيْد فراراً من عمه عبد الواحد ، وسار في عبيده وعبيد أبيه ، ونزلوا في رحاب الملكة أروى ، فأكرمت مشواهم ، وتعهدوا للملكة بدفع ربع متحصل تهامة إذا هي ساعدتهم وتم نصرهم على عبد الواحد ، فأرسلت المفضل بجيش كبير يساعده جيش آخر بقيادة زريع بن العباس وعمه مسعود الحمداني .

وولت على التعكر من يحفظه في غياب المفضل الذي تمكن من الاستيلاء فيما بعد على زُبَيْد بعد حصار طويل ، وطرده عبد الواحد ، وهنا ماطل المفضل في تولية منصور بن فاتك ، ولكن لما جاءته الأخبار بأن التعكر قد استولى عليه جماعة من الفقهاء بمساعدة بني الزر الخولانيين قفل راجعاً وحاصر الحصن مدة ولكنه لم يستطع اقتحامه ، وذلك لأن الفقهاء السنيين - بالإضافة إلى قبيلة خولان التي كانت تظاهروهم - دافعوا عنه دفاعاً مجيداً ، وما زال الحصار عليهم ، ثم رأى الفقهاء أن خولان خذلهم فدبروا حيلة .

ويقول المؤرخ عُمارة اليمنى : إن عمى إبراهيم بن محمد بن زيدان كانت له البيعة ، وحلف ألا يموت حتى يقتل المفضل ، فعمد إلى حظاياه من السراري وأخرجهن في أكمل زى وأحسنه ، وجعل بأيديهن الطارات ، وأطلعهن على سقوف

القصور بحيث يشاهد من المفضل ويسمع هو وجميع من معه أصواتهم ، وكان المفضل أكثر الناس غيرة وأنفة ، فقل إنه مات في تلك الليلة ، وكانت وفاته في شهر رمضان سنة ٥٥٤ هـ .

ولما مات المفضل طلعت الملكة من ذي جيلة ، وحطت بالربادي على باب التعكر ، وكاتبت الفقهاء بالنزول من الحصن على أن يقترحوا عليها ما شاءوا ، فأجابوا إلى ذلك ، واشترطوا عليها شروطاً وفدت لهم بها ، وولت التعكر مولاهم فتح بن مفتاح .

وكان المفضل حازماً عاملاً شجاعاً شهماً له عدة مكارم وجملة مفاخر ، لكنها دون مكارم الأمير سبأ بن أحمد ، وكان جواداً ممدحاً قصده الشعراء من الأماكن البعيدة ، ومن جملتهم مواهب بن حديد المغربي وامتدحه بغرر قصائده ومن بعضها :

يا مالک الدين والدينيا وأهلها

ومن بعزته الإسلام ممتسك

قد قيل جاور لتغني البحر أو ملكاً

وأنت يا بن الوليد البحر والملاك

وهو الذي جر الغيئل من « خنوة » إلى مدينة الجند . ومدمحه

القاضي أبو بكر اليافي فقال :

وأقل مكرمة له وفضيلة

إجراؤه للغسيل في الأجناد

شق الجبال الشامخات كأنما

كانت معالمها متون وهاد

وذلك أنه حفر في الصفا حفراً عديدة ، وخرق بعضها إلى بعض ، وأجرى الماء فيها في مواضع لا يصدق بها إلا من رآها ، ثم لما جاء إلى موضع بين جبلين أمر الصناع ، فبنوا جداراً من الجبل إلى الجبل طوله مائتا ذراع وعرضه نحو من عشر أذرع بالحديد وارتفاعه نحو من خمسين ذراعاً بحيث إذا رآه شخص يقول ما فعل هذا إلا الجن ، وبني مسجد الجسند ، وجدد بناءه من المقدم والحناحين ما هو مبني بالحجارة وسقفه على ذلك ، وقال صاحب « قلادة النحر » إن محمد ابن زياد المأربي مدحه فوصلة المفضل بألف دينار ، وكان من صفاته عندما عظم أمره أنه كان يحتجب عن الناس حتى لا يرجى لقاءه ، ثم يظهر فيُغنى من اجتماع بيابه من الوفود ، ويصل إليه الضعيف والقوى ، فينظر في أحوال الناس والعمال ، ويحيب على كل كتاب وصل إلى الباب ، ثم يغيب فلا يظهر ولا يوصل إليه .

وقد أدت وفاة المفضل إلى خروج بعض الجهات على

الملكة أروى ، فاستولى مسلم بن الزر على حصن خُدد ، وأخرج منه عبد الله بن يعلى الصليحي الشاعر الأديب ، ثم أظهر ولاءه إلى الملكة أروى بأن قدم ولديه عمران وسليمان كرهينة عندها . فاهتمت الملكة بتربيتهما ولما ترفى مسلم ملك بعده ابنه سليمان حصن خُدد ، وبقي عندها عمران الذي تولّى على حصن التعكر سنة ٥٠٥ هـ ، بعد أن تخاص من فتح بن مفتاح الذي شق عصا الطاعة على مولاته الملكة واحتال عليه بنو الزر ، وذلك أنهم خطبوا ابنته لعمران فزوجه بها ، فلما كانت ليلة الزفاف وصل جماعة منهم فأخرجوه من الحصن ، فلما حصل التعكر بيد عمران واصل فتح الملكة أروى ببذل الطاعة ، فلم تلتفت إليه ، فازداد نفوذ ابني الزر تبعاً لذلك ، وامتدت أيدي خولان على الناس وعاثوا فساداً ، فكانت الملكة أروى إذا رأتهم قد طغوا أرسلت إلى عمرو بن عرفة الجبني سطرّاً أو سطرين بخطها ، فقبض على بلاد ابني الزر ، فلا يخلصهما منه إلا الضراعة إليها والسؤال لها في صرف العرب عنهما .

وحرصاً على سلامة الدولة أقامت الملكة أروى مقام المفضل ابن عمه الأمير أسعد بن أبي الفتوح بن العلاء بن الوليد الحميري من القيام بدولتها ، والذب عن مملكتها والتوجه أيما أمرته ،

وكان متولياً تعز وصبر ، إذ كان أبوه قبله والياً عليهما ، فأخذ يدير شؤون الدولة على أحسن حال حتى غدر به رجلاان من أصحابه فقتلاه بين البابين في حصن تعز سنة ٥١٤ هـ .

ولما تعقدت الأمور على الملكة أروى أرسلت إلى مقر الإمامة الفاطمية في مصر تطلب منها إعارتها مستشاراً لمساعدتها في تدبير شؤون دولتها ، وقد شعرت الخلافة الفاطمية بأن مركز الدولة الصليحية بدأ يتزعزع ، فبادر الوزير الأفضل ابن بدر الجمالي في سنة ٥١٣ هـ إلى إرسال الأمير الموفق « على بن إبراهيم بن نجيب الدولة » يصحبه عشرون فارساً مختاراً إلى بلاد اليمن ليقوم بهذه المساعدة .

وكان ابن نجيب الدولة قد قدم من مصر قبل وفاة الأمير أسعد بن أبي الفتوح الحميري ، فقررت الملكة أروى إقامته في مدينة ذى جبلة للاستشارة ولتصريف الشؤون الحربية والإدارية ، وكان متفقهاً في أصول الدعوة الإسماعيلية ، مستبصراً في المذهب الشيعي الجعفري ، وكان على خزائن الكتب الأفضلية بمصر ، وكان نبهاً حسن التدبير كثير المحفوظات قيماً بتلاوة القرآن على عدة روايات ، وكان يلقب بألقاب تدل على سمو قدره ، وكان موضع ثقة الخلافة الفاطمية . ولا بد أن يكون هذا الرسول مكلفاً بأمور هامة لعالمها كانت

تمكين الدعوة الفاطمية في اليمن ، وتعزيز مركز الملكة أروى بعد أن طمع فيها زعماء البلاد واستقلوا بما تحت أيديهم . وقد كان ابن نجيب الدولة عند حسن ظن الدولة الفاطمية به ، فلما وصل إلى جزيرة دهلاك من عدن لقبه الداعي محمد بن أبي العرب ، فكشف له أسرار اليمن وأحوال الناس وأسماءهم وكناهم وتواريخ مواليدهم وما تحت ثيابهم من شامة أو جراح أو أثر نار .

فجاء إلى ذى جبلة ، وتشرف بمقابلة الملكة أروى ، فقلدته أمر جيوشها ، فاستخدم أربعمائة فارس من همدان وغيرهم ، وقدم عليهم الطوق الهمداني ، واشتد بهم جانبه ، وقويت شوكته ، وتمكن من وضع حد للخلافات الداخلية ، وإعادة الأمن والطمأنينة إلى البلاد .

وكان أول عمل قام به هو تأديب الخولانيين ، لأنهم كانوا قد بسطوا أيديهم على الرعايا في البلاد ، واستهانوا بالملكة أروى ، فطردهم من ذى جبلة ونواحيها ، وأوقع بمن بقي منهم حتى لم يبق منهم إلا ما كان منتسباً للملكة ؛ فلما رأت ذلك منه أمرته أن يسكن الجند .

وقد أمنت البلاد ، واستقرت الأمور ، ورخصت الأسعار بحسن سياسته وتذبيره ، وأقام العدل ، وعفّ عما في أيدي

الناس من الأموال ، وأقام الحدود وعزز جانب المملكة أروى ،
وانقمع أهل اليمن عن الطمع في أطراف بلادها ، وقد كان
برنامج ابن نجيب الدولة مقصوداً على إخضاع إمارات اليمن
الصغيرة للملكة أروى ، فتحسن بجهوده الفذة مركز
الدعوة في اليمن ، كما ساعد الملكة على جمع شمل كل من كان
قد تفرق عنها ، وقد بلغ هذا الشأو البعيد من النجاح في عامين
اثنين ، بين سنتي ٥١٣ و ٥١٥ هـ ، وكان نجمه لا يزال
في صعود ، لأنه بعد وفاة الأفضل بن بدر الجمالي سنة ٥١٥ هـ
أمدّه المأمون البطائحي الوزير بالمال والرجال ، فسير إليه
أربعمئة قوس أرمني وسبعمئة أسود . وقبل ذلك تمكن ابن
نجيب الدولة من أن يستخدم ثلثمائة فارس من سنجان بقيادة
الطوق الحمداني بالإضافة إلى من انضم إليه من أهل الدعوة ،
وقد ساعدت هذه العوامل على ارتفاع شأنه عند الملكة أروى
وبخاصة بعد أن كتب إليه الوزير المأمون بالتفويض في
الجزيرة اليمنية ، وبسط يده ولسانه ، وأوجب عليه تقديم
المساعدات للملكة أروى في كل ما تطلبه .

ولقد أطمعه هذا المركز الحربى الممتاز في محاربة الدولة
النجاحية في زُبيد سنة ٥١٨ هـ ، والوزير يومئذ بها « من الله
القاتكى » أحد عميد بنى نجاح ، وكان عشرة رماة من الأرمن

أصحاب ابن نجيب قد استأمنوا إلى أصحاب زُبَيْد . ولما تراسف الرجال في الحرب رمى رجل من العشرة المستأمنة بسهم فلم يخطئ أنف الفرس الذي عليه ابن نجيب الدولة ، فسقط إلى الأرض ، وشب الفرس عن ابن نجيب الدولة نافراً ، فانهزم عسكره ، وقتل السودان بأسرهم ، ولم ينج من الأرمين سوى خمسين ، وكانوا أربعمئة قوس ، وأما ابن نجيب الدولة فقاتلت عنه همدان أشد قتال حتى أودفه رجل منهم يسمى السباعي ، وكان في همدان « الطريق الهمداني » فأبلى هو وقومه بلاء عظيماً .

ومن الجدير بالذكر أن جواد ابن نجيب الدولة قد انفلت من المعركة صلاة يوم الجمعة ، فأصبح يوم السبت ببليدة الجَنَد ، وبينها وبين زُبَيْد أربعة أيام ، فذاع يوم الأحد بذي جبلة أن ابن نجيب الدولة قد قتل ، ولكن ابن نجيب وصل إلى الجَنَد بعد أربعة أيام ، وركب إلى ذي جبلة ، واجتمع بالملكة أروى ، فعاضدته ، وأعطته الأموال ، وجمعت إليه الرجال بعد هزيمته في زُبَيْد ، فزال يغزو العدو إلى أقصى البلاد .

على أن ابن نجيب الدولة لم ينج من حسد منافسيه الذين أخذوا يوقعون بينه وبين الملكة أروى فأخذت علاقته

بها تفتت منذ عام ٥١٩ هـ ، حتى قيل إنه رماها بالخبيل فقال :
« قد خرفت واستحق عندي أن يحجر عليها » .

ثم اجتمع عليه أمراء اليمن سليمان وعمران ابنا الزر ،
وسبأ بن أبي السعود ، وأسعد بن أبي الفتوح والمنصور بن
المفضل في ألفي فارس وثلاثة آلاف راجل فأحاطوا به في
الجنة ، وكانت الجنة ذات سور وكان مع ابن نجيب
الدولة من همدان أربعمائة فارس منتقاة ، وكل فارس منهم
يعد بمائة فارس . فلما اشتد الحصار عليه وهو في أشد حالات
التعب أرسل إلى الملكة أروى يطالب النجدة ، فأرسلت على
جاري عادتھا إلى عمرو بن عرفة الجبني ، فأتاها فخم
بن ذى جبلة ، وبعثت إلى وجوه القبائل ففرقت فيهم عشرة
آلاف دينار مصرية ، وقالت للرسول أشيعوا في العسكر أن ابن
نجيب الدولة فرق في الناس عشرة آلاف دينار مصرية ، فإن
أنفق الأمراء شيئاً من الذهب المصري بقينا وإلا ارتحلنا .
فلما طالب الجند الأمراء بذلك وعدوهم ، ولما كان من الليل
ارتحل الجند وتفرقوا كل واحد منهم إلى بلده ، وأصبحت الأمراء
بلا جيش ، والحشود بلا أمراء ، وانفض الناس عن الجند بهذه
الحيلة الحربية ، وهنا قيل لابن نجيب الدولة : هل أبصرت هذا التدبير
التي قلت إنها قد خرفت ، فركب إلى ذى جبلة ، وتنصل واعتذر .

لكن هذا التصرف الذى أنقذ ابن نجيب الدولة من الحصار ، ودل على حنكة الملكة أروى فى حرصها على إبقاء كلمة الفاطميين فى اليمن هى العليا ، قد أغضب سلاطين هذه البلاد لإخفاقهم فى التشفى من منافسيهم .

ولما رأى الخليفة الفاطمى الإمام المستنصر بالله أن سياسة ابن نجيب الدولة التى رسمها له الفاطميون قد حادت عن الخطة المرسومة أرسل إليه يستدعيه إلى مصر ، وبذلك انتهز أمراء اليمن الفرصة واتصلوا برسلى الخليفة الفاطمى وشوّهوا سمعة ابن نجيب الدولة لديهم ، وقالوا إنه كان يقوم بالدعوة ضد الفاطميين ، وكان يريد تملك اليمن والاستقلال به .

كل هذا قد ترك أثراً سيئاً فى نفس الخليفة ، فأرسل إلى اليمن الأمير الموفق ابن الحياط فى مائة فارس للقبض على ابن نجيب الدولة ، ولما وصل إلى الملكة أروى فى ذى جيلة طالبها بتسليمه ابن نجيب الدولة ، وكانت قد قبضت عليه بحيلة ، فامتنعت عن تسليمه فى بادئ الأمر ، وأخيراً برأته مما نسب إليه وأظهرت طهارته وإخلاصه ، وأوصت به خيراً ، ثم سلمته إلى الأمير الموفق سنة ٥٢٤ هـ امثالاً لأمر الإمام بعد أن استوثقت له من ابن الحياط بأربعين يمينا ، وكتبت إلى الخليفة ، ثم أرسلت إليه كاتبها محمد بن الأزرى ،

وكان أديباً مجيداً للألفاظ ، وسيرت معه بكرة من الأموال
تقدر بأربعين ألف دينار . وخرج ابن نجيب الدولة وهو
في قفص من خشب ، والناس ينظرون إليه فقال لهم :
« ما تنظرون ؟ أسد في قفص ! »

ويختلف المؤرخون في نهاية ابن نجيب الدولة ، فبعضهم
يقول : إن السيدة الحرة الملكة أروى سلمته إلى رسول
الحليفة ، وبالرغم من شفاعتها وأخذها الأيمان الغليظة على
الرسول ألا يمسه بأذى ، تأمر أعداؤه مع الرسول على إغراقه في
البحر قرب باب المندب .

ويقول المؤرخ ابن ميسر في كتابه : « أخبار مصر » : إن
ابن نجيب الدولة وصل إلى مصر وشهر به في القاهرة سنة ٥٢٤ هـ .
وقال آخرون إنه لا يعلم ما جرى لابن نجيب الدولة بعد خروجه
من اليمن .

ومهما يكن من أمر فإن نجم ابن نجيب الدولة قد أخذ
يأفل منذ أن دبّ النزاع بينه وبين الملكة أروى ، ومنذ أن
أساء التصرف في أمور الدولة . أضف إلى ذلك حقد أمراء
اليمن عليه ومؤامراتهم ضده ومع ذلك فإن الملكة أروى فقدت
بخروجه من اليمن أنشط أنصارها ومساعدتها فتجلى طمع
الأمراء فيها في نفس اليوم الذي فارق فيه ابن نجيب الدولة

مدينة ذى جبلة إذ دخل عليها سليمان وعمران ابنا الزر شامتين في ابن نجيب الدولة وخرجا من عندها وهما أشد ما يكونان سروراً وانشراحاً .

وبعد رحيل ابن نجيب الدولة اختارت الملكة أروى « على بن عبد الله الصليحي » ابن أخى على بن محمد الصليحي للدفاع عن دولتها وتولى الشؤون العامة . ولم يحدثنا تاريخ اليمن عما قام به من أعمال ، ولكن يظهر أن الدولة الصليحية بلغت درجة الانهيار في عهده .

ومهما يكن من أمر فإن الملكة أروى عندما انفردت بالحكم في آخر أيامها تآقت نفوس أمراء اليمن إلى الاستقلال والاحتفاظ بما تحت أيديهم من القلاع والحصون والبلاد ، بالرغم مما بذلته من جهود ، وما استعملته من حكمة ودهاء ، وما اعتمدت عليه من الرجال المشهورين بالكفاية والمقدرة والإدارة وبالرغم من معاضدة الخلافة الفاطمية في القاهرة لها ... لكن العوامل الانحلالية وأسباب الانقراض تسربت إلى قلب الدولة ، فكانت أقوى من العوامل الأخرى كافة ، وتغلبت أخيراً عليها .

ومن الجلى الواضح تاريخياً أنه كان في تلك الأثناء منصور ابن المفضل بن أبي البركات الحميري مستولياً على ذى جبلة ،

وملك منصور أيضاً أسيح وحصونه بعد وفاة أبيه المفضل سنة ٥٠٤ هـ ، ولكنه ظل يدين بالطاعة للملكة أروى حتى وفاتها سنة ٥٣٢ هـ . وبعد ذلك استولى على ما كان تحت يدها من حصون وذخائر وأموال . ولما تقدمت به السن ، وصار لا يستطيع حماية هذه الحصون من الطامعين ، وأعيته الشيخوخة عن التحرك والمدافعة ، باع حصون بني الصليحي ومدنهم سنة ٥٤٧ هـ ، وهي ثمانية وعشرون حصناً ومدينة ، ومنها ذى جبلة والتعكر وذى أشرق وإب . وقد ابتاعها المتوج محمد بن سبأ الزريعي بمائة ألف دينار .

ويصادف في تلك الأثناء أن يطلق منصور زوجته الصليحية ، وكانت الوريثة الوحيدة للملك والثروة ، فتزوجها محمد بن سبأ الزريعي فقوى نفوذه ، وامتد ذكره لما صار إليه من المال والقوة والمعاقلة والعقائل .

وقد بقيت هذه الحصون والمدن في أيدي ملوك بني زريع إلى أن استولى على بلادهم « عبد النبي بن علي بن مهدي » وبعد ذلك صالحوه على تركها في أيديهم ، وظلت كذلك حتى أزالهم عنها « توران شاه بن أيوب » .

وهكذا انتقلت السيادة في اليمن من اليمنيين إلى الأيوبيين الذين حرصوا على إظهار ولائهم للخلفاء العباسيين ، وأقاموا

الخطبة للعباسيين في جميع أنحاء اليمن التي دخلت تحت رايهم .
 وأخيراً ، لا بد من القول إن الملكة أروى الصليحي
 الإسماعيلية ستبقى خالدة في نفوس اليمنيين والعرب بصورة
 عامة مدى الدهور . كما بقيت إلى يومنا هذا مآثرها وأعمالها
 الجليلة التي تنطق بعظمتها وستظل وحيًا ونورًا في حياة الشعب
 مهما اختلفت الطرق واشتدت الأزمات وبعدت المسافات
 وتخلفت القوافل . لأنها وحيدة كل زمان والمرأة التي حكمت
 اليمن بعد « بلقيس » .

ومن مجريات الأمور والحوادث التاريخية المتسلسلة يستدل
 أن الخليفة الفاطمي الإمام المستنصر بالله كان يعدها مثلاً
 أعلى للمرأة ، وذلك لكفائتها في إدارة شؤون البلاد وحكمتها
 وسياستها ، فلهذا لا يدخلها في عداد ربات الحجاب .

والحقيقة : أنها من شهيرات النساء اللائي كان لهن أثر ظاهر
 في حياة بلادهن ، وقد أثرن روحياً وعملياً في حياة
 الشعوب وجعلن الأجيال تحنى أمامهن الهامات إجلالاً واحتراماً
 لما قمن به من جليل الأعمال .

فهي ملكة عظيمة توجهها الشعب اليمنى ، وضمها إلى
 صدره ، وأحبها ، ونظر إليها كما ينظر إلى القديسين والمخلصين
 الذين يخرجون بالناس من الظلمات إلى النور .

وقد عشت بالروح مع هذه المرأة أنسقط أخبارها من كل سفر . وأتعرّف على أخبارها من أغرب المخطوطات ، وكلمنا زاد بنى البحث والتنقيب زدت بها حباً ، وتضاعف إعجابى وتمديرى لها .

ذاك عصر بعيد ، ولكنه جميل ، نرى فيه الطموح والمغامرة والتطاحن السياسى والمؤامرات والحروب والقتل ، كما نلمس فيه الثبات والرجولة والوفاء يتجلى مع سحر الشرق وروحانيته وكرم بنيهِ وإيمانهم الراسخ بالله .

ماتت الملكة أروى الصليحي فى غرة شهر شعبان من سنة ٥٣٢ هـ عن ٩٢ سنة ، ودفنت فى مسجد ذى جبالة إلى الجهة الجنوبية فى منزل متصل بالمسجد ، وكانت هى التى تولت عمارة هياأت فيه قبرها . وقبرها إلى اليوم يزوره . جميع فرق المسلمين . ويعترف بفضلها الخاص والعام . هذا ؛ وإذا كانت الدول الناهضة فى العصر الحاضر تعمل على تنمية اقتصادياتها بشتى الوسائل لإسعاد شعوبها ، وتوفير الرخاء لأكبر عدد من سكانها ، ورفع مستوى المعيشة بين أفرادها ، وهى بذلك لا تترك ناحية من نواحي الإنتاج إلا ولتها عنايتها المرموقة ، لتصل إلى هدفها المنشود ، فتهتم بالزراعة والصناعة والتجارة والمواصلات ، ويعدها هذا العمل من قبل

هذه الدول عملاً مشكوراً كما يعد من أهم الأسباب التي تساعد على تنمية مركز الحكومات في نظر الرعايا — إذا كان ذلك وكان مدى تقدم الدول الآن يقاس بمقدار ما تقدمه الحكومات من إصلاحات في سبيل رفع مستوى المعيشة للشعوب ، فإننا نقف معجبين عندما نعلم أن الملكة أروى قد سبقت الحكومات المتحضرة المعاصرة في اهتمامها بتنمية اقتصاديات اليمن ، فقد اهتمت الملكة برعى المواشى وتحسين النسل لكي توفر للشعب بمختلف طبقاته اللحوم والألبان ، بل توفر القوة والغنى ، فقد أثر عنها أنها وقفت أراضي واسعة في نواحي ذي جبلة وحقل قتاب تصرف غلاتها في شراء الفحول من البقر ، كما وقفت أراضي كثيرة ثمينة خصبة لرعى المواشى ، وهذه الأوقاف لا تزال موجودة إلى الآن ومعروفة باسم « أوقاف السيدة » ، وكل هذا قد حدث في العصور الوسطى مما يدل على أن الملكة أروى سبقت في تفكيرها ووعيتها دول العصر الحديث التي تعمل بشتى الوسائل على تنمية اقتصادياتها وتصرف الأموال الطائلة في سبيل ذلك .

وأمر آخر لا يقل أهمية عما ذكرناه ، ويدل على سبق الملكة أروى في تفكيرها لعصرها ، وهو الاستعانة بالمستشارين من الدول الأخرى ، وعلى الرغم من وجود شخصيات وأمراء

وزعماء أكفيا في بلادها ، فقد عرف أنها طلبت من الخليفة الفاطمي في القاهرة الإمام المستنصر بالله أحد رجاله المشهود لهم بالكفاية والمقدرة ، وقد أجابها لذلك بأن أرسل إليها ابن نجيب الدولة ، وهذا ما تفعلة الدول في العصر الحديث فتستعين بالخبراء الأجانب على الرغم من توافر رجالها الممتازين وتقدمها في مضمار الحضارة .

وعرفت المملكة أروى التجارة مرفقاً هاماً من مرافق الاقتصاد الوطني ، وأن هذا المرفق يعتمد على المواصلات وهي الدعامة الكبرى لتسهيل نقل الحاصلات والواردات ، فعبدت الطريق من رأس جبل سمارة إلى السيفي على مسافة ثلاث مراحل ، ويعد هذا أول الطرق الزراعية الممهدة في اليمن وأكثرها فائدة إلى الآن . وأولت عنايتها أيضاً لحركة البناء والتعمير التي تعد دعامة قوية من دعائم استقرار الحكم ورضا الشعوب ، فأنشأت الكثير من المدارس ومنها مدرسة لتدريس الصالحين بذي جبلة ، وأنشأت المصالح العامة المتعددة ، وبنت المساجد والمصحات ، فهي التي وسعت جامع صنعاء ، وأضافت إليه الجناح الشرقي وصممت عمارته وزينته ، وكان اسمها مكتوباً على الأحجار البيضاء التي كانت فوق الباب ، ولكن التعصب لم يترك من هذه الأحجار شيئاً ، وبنت كذلك مسجد الضربة

في بلاد يريم ، والمسجد الجامع في ذي جبلة ، ولها علاوة على كل ذلك أعمال جليلة وآثار باقية لا تحصى .

يضاف إلى كل ما ذكرنا من فضائلها وأعمالها وسياستها أنها منحت رعاياها في البلاد اليمنية حرية الاعتقاد فلم يكن هنالك أى ضغط على أحد بسبب الدين وساوت بين كل رعايا دولتها فأصبح لليمن سمعة عالية في كل مكان ، وكان هذا من الأعمال التي تفاخر بها الملوك ، فهي تستهدف مصلحة الشعب وإتاحة الفرصة لجميع الكفايات في بناء الوطن الذي كانت الملكة أروى تعده ملكاً للشعب وليس لنفسها أو لأسرتها .

وفي نهاية المطاف نقول :

إن السبب الرئيسي في سرعة انتشار نفوذ الصليحيين في اليمن فضلاً عن سيرتهم الفاضلة ، واتحاد معظم قبائل همدان وحمير تحت لوأهم . يرجع إلى الفوائد التي كسبتها دولتهم بفضل اتصالحهم بالخلافة الفاطمية وبمنظمة الدعوة الإسماعيلية بالقطر المصري ، لأن الدعوة أنفسهم كانوا يعترفون بأن المستجيبين لم يدخلوا حظيرة الدعوة إلا رغبة في تكوين دولة أهل البيت ، وقد نرى أن ولاءهم للأئمة الفاطميين ، واتصالحهم بالخلافة الفاطمية بمصر ساعد الملك على الصليحي عندما

قام بتأسيس دولته ، فقد ساعدته الدعوة في امتداد نفوذه وتقوية مركزه حتى تمكن بهذه الطريقة وبقوة عزيمة وبِعَظِيم هِمته أن يكون سيد اليمن الأول ، وكان هذا الاتصال بالخلافة الفاطمية المصرية في الوقت نفسه ضعفاً لكيان الدولة اليمنية وبقائها .

أما عن امتداد نفوذ الصليحيين في خارج بلاد اليمن ، فقد ذكرنا فيما سبق ما حدث بعد دخول الملاك على الصليحي مكة سنة ٤٥٤ وإقامة الخطبة للخليفة الفاطمي الإمام المستنصر بالله ، فامد كانت هنالك دوافع سياسية ، وعلى الأخص دينية ، تجعل الحلفاء الفاطميين يحنون ولاتهم في اليمن على التدخل في شؤون الحجاز لأن الفاطميين كانوا يريدون بشدة أن يخطب لهم على منابر الحرمين الأعظمين مكة والمدينة ، ولهذا نلاحظ منافسة شديدة في تلك العهود تقع بين الخلافتين الفاطمية والعباسية ، فكانت كل منهما تسعى إلى الاستيلاء على الأراضي المقدسة بالحجاز ، وذلك لتوطيد نفوذها ومركزها في أهم نقطة التقاء للعالم الإسلامي .

وكل هذا من قبل الصليحيين بالإضافة إلى ردهم بنى شعبة عن قبائح أعمالهم ، وتأديب الشرفاء وإصلاح ما أفسده

بنو الطيب الحسينيون في الحجاز ، وترخيص الأسعار ، ونشر
الطمأنينة والأمن ، في البلاد المقدسة .

ولقد كان لهذه الانتصارات في الحجاز ولتلك السياسة
الرشيدة والحماسة البالغة للدعوة من قبل علي الصليحي الأثر
العظيم في تولي رئاسة الدولة . ثم في نيل ثقة الفاطميين وتكليفه
من قبلهم بالإشراف على شؤون الدعوة في الهند والبحرين
والأحساء والسند . فعندما عادت الدوائر الحكومية الفاطمية
بضعف حكام عمان نتيجة للثروات التي قامت فيها على
حكوماتها الموالية للخلفاء العباسيين ، منحت الملك علي الصليحي
وولده الملك المكرم صلاحية الإشراف على رئاسة بلاد اليمن
وعمان الدينية والسياسية معاً على الرغم من أنها كانت خارجة
عن نطاق حكمه ، كما عهدت إليه بالإشراف على شؤون
الدعوة في البحرين والأحساء ، ويتبين ذلك من السجل
المستنصرى الموجه إلى الملك المكرم ، فقد جعل له الخليفة
الفاطمي الإمام المستنصر بالله ولاية الأحساء وعمان جميعها
دانيها وقاصيها ، ويأمره أيضاً أن يكون الأمير عبد الله بن
علي العلوي أمير الأحساء نائباً عنه فيها ، وأن يمدّه من جهته ،
وذلك لأن له مواقف حميدة في إقامة الدعوة الإسماعيلية
ونصرتها على الخوارج وانتزاع زمام العمل والزعامة منهم .

إن الدولة الصليحية الإسماعيلية في اليمن بفضل مؤسسها الملك علي الصليحي كانت ذات مركز ممتاز في العالم الإسلامي ، فقد تمكن الصليحي من جمع اليمن كله تحت لواء دولته ، كما مد نفوذها إلى البلاد المقدسة في الحجاز شمالاً وحضرموت جنوباً ، وفي عهد خلفه الملك المكرم صارت عمان والأحساء والبحرين والهند والسند تحت النفوذ الروحي للدولة الصليحية ، فبلغ هذا النفوذ أبعد غاياته في عهد الملك المكرم . إن هذه الدولة التي حاولت أن تسعد رعيتهما ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً ما لبثت أن أخذت تضعف ، شأنها في ذلك شأن كل كائن حي .

وإذا أردنا أن نصل إلى معرفة هذا الضعف وجب علينا أن نرجع ذلك إلى أصول بعيدة لا يمكن التغاضي عن ذكرها في معرض البحث .

فلقد استفادت هذه الدولة من غير شك من الحالة التي سبقتها ، وكانت اليمن كما ذكرنا تسودها الفوضى والانحلال قبل ظهور الملك علي الصليحي ويحكمها الأمراء والسيلاطين وبخاصة بنو نجاح الأحباش في تهامة اليمن ، فاستيلاؤهم على حكم تهامة وما جاورها أوجد روح التمرد والتدمير بين القبائل العربية التي عبرت عن عدم ارتياحها لهذه الحالة

بالانضواء تحت راية ملك عربي أصيل ينتمى إلى صميم قحطان ، وقبول بعض القبائل الدخول في الدعوة الفاطمية مع كونها تخالف إلى حد ما عقيدتهم ، بعد ما رأوا من علو همة الصليحي وانتصاراته وحسن إدارته وسياسته وحرصه على مصالح رعيته . ولعل انتشار نفوذ الصليحي في البلاد يرجع إلى رغبة تلك القبائل في التخلص من حكم الأحباش .

لقد ارتاحت العرب واطمأنت بعد أن صير الصليحي شتات أمرهم وحدة يمنية جامعة ، وقضى على الدويلات وأطماع سلاطينها ، وأدخل نظاماً من نوع آخر بدل الفوضى والانفرادية واستقلال النظام القبلي ، بقدر ما ترتب على وحدة اليمن من منافع محققة للشعب وما بذله الصليحيون من جهد لإسعاد شعبهم طول مدة حكمهم ، وما فعلته هذه السياسة من تثبيت مركز الدولة ، لكن عوامل الانحلال والتدمير أخذت تظهر مرة أخرى بعد أن وجدت هذه القبائل وزعمائها أنها فقدت ما كانت تتمتع به في ظل النظام القبلي المستقل الذي كان منتشراً في الجهات المختلفة ، وحل محله نظام الإقطاع في عهد الدولة الصليحية لتستعوض به عن الحكومة المركزية ابتغاء الحصول على قسط من الأمن والاستقرار .

أضف إلى ذلك إهمال الدولة الصليحية والخلافة الفاطمية

فى مصر تحقيق التعاون الاقتصادى والتبادل التجارى بينهما .
ومن الجلى الواضح أن الدولة قد استنزفت قسطاً كبيراً من مالىتها
وإنتاجها فى الحروب الداخلىة والخارجية وكل ذلك بسبب
العداء القديم بين هذه الدولة وأصحاب العقائد الأخرى .

ومما لاشك فيه أن الزراعة والفلاحة هما قوام المجتمع فى أى
بلد كان ، وأن جمهور ذلك المجتمع يتكون من الفلاحين ،
ولم تكن هذه الطبقة إلا من العناصر الفقيرة فى الشعب المحرومة
من كل عطف ، ولهذا لم ترض بحكم الصليحيين . ولما كانت
ثروة الدولة تعتمد الاعتماد الكلى على هذه الطبقة العاملة ،
فإن عدالة حكم الصليحيين كانت تقتضى السهر على
مصلحتها ومساعدتها ، والضرب على أيدي الولاة المخالفين
الذين يعيشون بروحية القرون البعيدة القائمة على التحكم
والاستعباد ، وإن مثل هذا العطف كان يلاقى كل قبول
لدى هذه الطبقة ويحول دون انتشار روح التدمير بينهم ،
وقد رأينا الملاك على الصليحي قد وعد عماله بالتنكيل إذا
رفع إليه شىء مما نهاهم عنه ، كما أمر جميع الرعية أن يرفعوا
إليه ما يكون من العمال من فعل القبيح والحسن حتى ينزل
بهم من إنعامه وعقوبته بحسب أفعالهم ، وقد دعاه إلى ذلك خوفه
من أن ظلم الولاة قد يثير حنق الرعية ، وتعلم ذلك ممن سبقه

في حكم اثنين ، فعرف أنه بسياسة اللين المقرونة بالحزم يمكنه أن يحفظ دولته من أعاصير الفتن ومن رياح الثورات .

وكان الصليحي قد وزع السلطة في البلاد بين من يثق فيهم من الصليحيين والزواحيين فأصلح كل حصن يحكمه أحد أعوانه ، غير أننا نرى أن هؤلاء الولاة كانوا مقيدين بسياسة خاصة رسمها لهم الصليحي ليسيروا على نهجها ، وعلى الرغم مما يبدو في هذه السياسة من المنافع لمصالح الرعية ، وحرص الصليحي على استقرار الأمن في ربوع دولته ، ما لبثت الأمور أن تغيرت بعد مقتله في موقع المهجم سنة ٥٤٥٩ هـ . وذلك لأن مدة حكم المكرم استنفدت كلها في الحروب ، فلم يقدر أن يلتفت كثيراً لمصالح الرعية فأخذ نفوذ حكام الحصون يزداد ، وأخذ روح التدمير والاستياء من هذا النظام يزداد تبعاً لذلك ، هذا إلى جانب ما استتبعه من الأعباء الثقيلة التي كان يقع غراماً على طبقات الشعب الفقيرة وحدها ، ولم يكن هذا التدمير يرجع إلى عدم تعودهم هذا النظام الجديد وحده ، بل كان يرجع إلى حرمانهم الامتيازات والمنافع التي كانت تتمتع بها طبقة رؤساء الإقطاع الذين كانوا يختارون من قبائل أرستوقراطية معينة كالصليحيين والزواحيين أو اليامين لتضمن الدولة الصليحية تنفيذ سياستها

العامة . ولعل كثرة الحروب التي قام بها الملك المكرم فيما بعد ترجع إلى الاستياء من حكمه غير المستقر ، ولعل ذلك هو أحد الأسباب لاستنفاد الجهد والمال . وقد تمكن مع ذلك من حفظ دولته من كل هذه الأعاصير المضطربة الهوجاء .

مطابع دار المعارف بمصر

سنة ١٩٧٠